من أحاديث الزاهرة :

عيدي الذى فقدته (*)

للأستاذ على الطنطاوى

يا آنسين بالعيد ، يا فرحين به ، هل تسمعون حديث رجل أضاع عيده ، وقد كانت له أعياد ، أم يؤذيكم طيف الشجى إذ يمر بأحلام أفراحكم الضاحكة ؟ إذا كنتم تصغون إلى حديثى فلكم شكرى ، وإن أنتم أعرضتم عنى فما يضرنى إعراضكم ، وإن من نعم (المذياع) أنه لا يدرى المتكلم فيه من ينصت له ، ومن يَشْغب عليه ، ولا يسمع مدحاً ولا قدحاً ، وما يرى إلا (العلبة) يكلمها ، وما ترد علبة على متكلم جواباً ...

ولا تقولوا إذا سمعتم حديثى . هذا رجل لا يتكلم إلا عن نفسه . فكذلكم الأدباء كلهم ؛ لا يتكلمون إلا عن أنفسهم ، ولكنهم إذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم ، فهم تراجمة المواطف ، وألسنة القلوب ، وصدى الخواطر ، حتى ليقول القارئ إذ تمرّ به آثارهم : ما هذا ؟ إن فى هذا التعبير عما أحسّ به ؛ إنه وصف لى أنا وحدى ... وما هو له وحده ؛ إنه وصف لكل نفس بشرية ...

ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس ! ولكن الناس لا يشكرون ...

* * *

يا سادة : إنه كان لى فى حياتى عيد واحد ، ولكن طمس القدم صورته فى نفسى فلا أرى منها إلا ملامح . لقد وجدت عيدي فى (صُرْماية حمراء[1]) أصبحت يوماً فلقيتها إلى جانب الفراش ، وكنا نبسط الفرش ، وننام على الأرض ؛ لم تكن قد انتشرت هذه الأسرّة وعمت ، لم تكن إلا للأكابر ، ولقيت معها (قبازاً) من (الألاجة[2]) له خطوط حمر على أديم أخضر كأنه حقل قمح قد نبتت فيه سطور من شقائق النعمان ، وعقالا (مقصباً) كأنما قد نسج بخيوط الذهب ، يبرق كأنه تاج ملك جديد . وعباءة رقيقة فيها مناطق حمر ، وأخَر بيض ، وحواشٍ من القصب اللماع ؛ لها طُرَر مختلفات الألوان ... تخطف ببريقها النظر .

فلم أصدق أن كل ذلك لى أنا ، وسألت متحققاً . فقالوا : إنه لك ، إنه لباس العيد . قلت : وما العيد ؟ قالوا : العيد . ألا تعرف العيد ؟ فلم أعرفه ، ولكنى قنعت بما وجدت من نعمائه وتخيلته ضيفاً جميلا نزل البلد ...

وذهبنا نبصر العيد ، ومشينا فى الطرقات ، وإذا الوجوه باسمات الثغور ، منبسطات القسمات فكأن أصحابها قد لبسوا مع الثياب البراقة الزاهية حلّة من اللطف والظرف ، ولم نر نحن الصغار من يزجرنا ذلك اليوم عن حماقة نأتيها ، أو ذنب نذنبه ، بل وجدت كل من أسلم عليه من أقربائى وأصحاب أبى يعطينى نقوداً (نحاسات) صفراً لامعات كالدنانير ، و (متاليك) جدداً ، ولم تكن قد عرفت هذه القروش الورقية القذرة الممزقة التى يأنف المرء من مسّها ، فاجتمع لدىّ مبلغ من المال ، هو بالنسبة إلى طفل مثلى ثروة كثروة رجال (الشركة الخماسية) فى دمشق ، ولكنى أخذته حلالا بطيب نفس ، وأخذوا هم ما أخذوه حراماً انتزعوه من فم الأرملة واليتيم ؛ فكان برداً على قلوبهم وسلاماً فى لهب هذه الحرب ، ولكنه سيكون من بعد ناراً آكلة فى أكبادهم ، وسمّاً هارياً فى أمعائهم ، وغصة خانقة فى حلوقهم ، ولعنة متسلسلة فى ذراريهم ، وجحيما متسعراً يوم المآب ... فارتقبوا — أثرياء الحرب — إنا معكم من المرتقبين !

* * *

وكانت دارنا فى (السُّقَيبة) فكان أول ما لقيت من العيد (جامع التوبة) ؛ هذا الجامع المأنوس الذى يملأ جوّه دائماً خشوع وأنس ، ولم أكن أدرى يومئذ ما الخشوع وما أنس الروح ، ولكنى أحسست فيه فرحة شاملة ملأت نفسى ، وذهبنا إلى (الأموى) ، وكان صوت التكبير ينبعث منه قوياً مجلجلا ، كأنه هدير (بردى) عند شلال (التكية) فشعرت بحال لم أعهدها فى نفسى من قبل ولم أعلم ما هى ؛ شعرت بالحماسة

(*) أذيع ولم ينشر .

(١) الصرماية : كلة شامية معناها « الخف » .

(٢) نسيج شامى هو الذى تصنع منه قفاطين مشايخ مصر .

التى تغلى منها دماء المسلم حينما يسمع هذا النشيد السماوى الذى لم تسمع أذنا الأرض نشيداً بشرياً أروع منه روعة أو أشد أو أقوى ؛ هذا النشيد الذى علمت بعد أن أجدادنا كانوا يهدرون به فى أشداقهم فتتداعى أمامهم الحصون ، وتساقط الأسوار ، وتفتح لهم به أبواب المجد حتى فتحوا به الدنيا ، هذا النشيد الذى كان من بشائر الرجاء أن اتخذه (الاخوان المسلمون فى مصر) شعاراً لهم ليصلوا به ما كان انقطع من قلادة أمجادنا التى طوقنا بها عنق الزمان ، ولينشروه مرة ثانية فى آفاق الأرض فتردده معهم الجبال والأودية . والمدن والقرى : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله — الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد !

ودخلت فوجدت فى المسجد متعة لم أجد مثلها فى لهو كنت أتخذه ، أو ما كنت أمرّ به ، وجدت — ولم أكن أدرى — متعة الدين والدنيا إذا اجتمعا : الكثرة والألفة والثياب البراقة والنظافة والنظام ، والتقى والاخلاص ، والغنى السمح الشاكر والفقر المتجمل الصابر ، والمعاونة على الخير ، والمواساة والإيثار ، وكان فى المسجد نساء قد اجتمعن فى (المشهد[1]) بالأزر البيض والملاءات الساترة ، ما يظهر منها عين ولا بنان ولا ساق ، قد جئن للصلاة .

كذلك كان بلدنا قبل أن تصله هذه (الحضارة) الجديدة ، كذلك كان يوم كان أهله متأخرين جامدين ، فياليته يعود كما كان ، ياليتنا بقينا متأخرين عن هوّة الفساد لم نَقْدم عليها ، جامدين لم نعرف هذا المَيْع . إن الجامد يتماسك ويثبت ، أما المائع فيسيل ويجرى حتى ينصب فى البَلُّوعة[2] ... أفعرفتم الآن مصيركم يا أيها (المائعون) ؟ !

ثم أممنا (مقبرة الدحداح) فاذا الحياة الضاحكة جاءت تزاحم الموت العابس على أرضه ، وتنتزع منه مثواه ، وإذا المقبرة دار الوحشة والعبرة قد أحالها العيد منزل الفرح واللهو ، ففيها (الدُّوَّيخات) منصوبات ، و (القلاّبات) قائمات ، والعربات الصغار مزينات بالأعلام الملونات مشدودة فى جوانبها الأجراس والجلاجل ، والأطفال بثيابهم التى تحكى زهر الربيع ، منها الأحمر والأصفر والأخضر والفضى والمقصّب وذو الطرر وذو الحواشى ، راكبون على أفراس (الدويخة) تدور بهم ، أو جالسون فى سرر (القلابة) تصعد بهم وتنزل ، أو متعلقون بالعربة ، والنساء قاعدات عند النهر ، والرجال مجتمعون عند التلّ ، وعلى القبور الآس الأخضر معقود بشرط الحرير يخيل للرائى من كثرته أنه فى جنة ملتفة الأفنان ، وخلال الآس الخيام المنقوشات والسرادقات ، وباعة (القضامة) و (اللب) و (عرق السوس) يجولون بين الناس ينادون أعجب النداء ، وبياع (الفول النابت) قد أوقد ناره ورفع قدره ، ونصب مائدته ، وحفّ به الصبيان والبنات ، وصاحب (صندوق الدنيا) قد حطّ صندوقه ، وقعد حوله الأولاد ، ينظرون فإذا هم يسيحون فى البلاد ، ويرون عبلة وعنتر بن شداد ، فلا يكاون يستمرئون الحلم ويستغرقون فيه حتى يرخى الستار فيهبطوا إلى أرض الواقع ؛ فإذا الذى كانوا فيه قد مرّ كما تمرّ الأحلام لم يخلف إلا ذكرى مشوبة بألم الفقدان .

كذلك كانت المقبرة أول ما عرفت العيد . إنها صورة المقبرة يوم نفخ إبليس فى بوق الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

صبركم يا أيها المستمعون ، ودعونى أطل وقوفى على هذه المقبرة ؛ فإنكم لا تعلمون منزلتها فى قلبى ، ولا أستطيع أن أعلمكم ، وكيف ؟ أوتصدقون إذا قلت لكم إن لهذه المقبرة صوراً فى نفسى أحلى من صور الرياض ، وذكريات أجل من ذكريات الحب ؟ وإن نهرها هذا الصغير القذر أعزّ علىّ من بردى ودجلة والنيل ، وأشجارها هذه المنحية عليه أبهى عندى من صنوبر فالوغا ونخيل الأعظمية ، وكراسيها هذه الواطية أنعم فى عينى من أسرّة (أوريان بالاس) و (شبرد) ؟

إن فى هذه المقبرة بقايا من قلبى ، إن لها تاريخاً فى نفسى ، يعرف أكثره أخى أنور العطار . فسلوا أنور متى يقوم بحق الوفاء لهذه الذكريات فيخلدها بقصائد بارعات من شعره العبقرى ، فما أحسن أنا تخليدها ، لا أطيق أن أفى لها هذا الوفاء ؟ سلوه أنسى ليالى نمشى فيها لنزور قبور الأحبة فى ظلمة الليل : أبى وأمى وأمه وأبيه ، ونبكى عليها ، والمقبرة ساكنة خالية ، ما ترانا إلا عيون النجم ، وما تسمعنا إلا الشواهد الشواخص — ونحدق فى سدفة الزمان نرقب أن نرى طلعة الأحباب الذين اشتد إليهم

(١) المشهد فى الأموى اسم لحرم صغير فيه جامع وفى المسجد أربعة مشاهد فى أحدها رأس الحسين . هو فيه لا فى مصر والله أعلم .

(٢) البلوعة البالوعة من السامى الفصيح

الشوق وطال الغياب ، فلا نرى إلا ظلاما مترا كبا ، ونعود فنحاول أن نخترق حجاب الآتى لنبصر طيف الأمل الحلو فلا نبصر إلا الظلام ... ليالى كنا نعود وقد برّح بنا الألم ، وهدّنا الحزن ، فأستمع من أنور بواكير أشعاره ويسمع منى بوادر رسائلى ، تلك البواكير التى قرأها الناس فرأوها ندية بالدمع ، فياضة بالحزن . فقالوا : ما لهذا الشاب والألم ، ماله لا ينظم إلا الشعر الباكى ، ما دروا أن هذا الشعر قد نظمت حباته على قبر الوالدين ، فى ليالى اليتم الكوالح ...

مساكين الأدباء . يجبلون فلذات قلوبهم بدموع عيونهم ، ليقيموا منها تماثيل الأدب فيأخذها الناس عابثين ، وينظرون إليها لاهين ، ويعيبونها ظالمين ، ثم يملّونها كما يمل الصبى لعبته فيرمونها فيحطمونها ، ويفتشون عن لعبة جديدة ...

مساكين الأدباء !

يا سادة :

لقد مشيت بعد فى الزمان ، وسحت فى البلدان ، فكبرت ورأيت أياماً قال (التقويم) إنها أيام عيد ، رأيتها فى دمشق بلدى ، ورأيتها فى الأعظمية فى بغداد ، ورأيتها فى البصرة ذات الشط والنخيل ، وفى الحرش من بيروت ، وفى القاهرة أم الدنيا ، ولكنى لم أعد أجد فى ذلك كله تلك البهجة التى كانت للصرماية الحمراء والعقال المقصّب ، والعربة ذات الشراع الأحمر والجلاجل والثياب الملونة الزاهية التى تحكى زهر الربيع ؟ أفتغيرت الدنيا أم قد أضمت عيدى ؟

أتغيرت الدنيا يا ناس أم الناس قد فقدوا فرحة العيش حينما تركوا تلك الحياة السمحة القانعة الطاهرة المبرأة من أدران حضارة الغرب ؟ تلفتوا أيها السادة حولكم ، واسألوا من تلقون من الكهول عن ذلك الزمان ... تجدوا فى عيونهم عَبْرة ، وفى قلوبهم حسرة ، وعلى ألسنتهم جواباً واحداً : رحم الله تلك الأيام لقد كانت أيام انشراح ...

كانوا لا يعرفون دسائس السياسة ، ولا التزاحم على الرياسة ، ولا شبه العلم ، ولا رذائل الحضارة ، لا يختلفون على مذهب اجتماعى ولا يقتتلون لمصلحة حزب سياسى ، ولا يقرءون أبواب الوظائف ، إن تعلموا العلم تعلموه لله لا للشهادات ، وإن طلبوا المال طلبوه من التجارة لا من المضاربات والاحتكار والرشوات ، وإن أرادوا تسلية ولهواً ، قصدوا الربوة أو الميزان أو الشاذروان ، ينصبون سماورات الشاى ، وبساط الأكل ، وبساط الصلاة ، لا يعرفون سينما ولا ملهى ولا ماخوراً ولا (نادى دمشق) ، المساجد ممتلئة بهم ، ومدارس العلم حافلة بأبنائهم ، والعلماء هم الأمراء ؛ طلبوا الآخرة لا الدنيا فأعطاهم الله الدنيا والآخرة ، والبيوت جنان الأرض ، والنساء حور تلك الجنان لا يعرفن التبرج ولا التكشف ولا يراهن أحد فى الطريق ؛ إلا خارجات لضرورة لا بدّ منها ، ومعهنّ الزوج أو الأب ، يسبقهنّ وهنّ يتبعنه ، لا يعرفن بيوت الفجور ، ولا أماكن العصيان ، ولا (دوحة الأدب) ، ولا يخطر على بالهنّ أن الدنيا ستبلغ من الفساد أن سيكون فيها (فرق مرشدات) ...

كذلك كانوا فكانت أيامهم كلها أعياداً ؛ فأين أعيادنا نحن ؟

أربحنا من هذه المدنية ... وهذا العلم ... أم خسرنا ؟ سلوا هذه الحرب عما صنعته علومهم بسعادة البشر ، وسلوا التاريخ عما صنعت بها علومنا وشريعتنا ؟

يا سادة :

إننا صرنا اليوم نلبس (البذلة) بدل (القنباز) ، وننام على السرير ، ونأكل بالشوكة والسكين ، ونقرأ أخبار أمريكا وأوربا ونتكلم فى الجغرافيا والكيمياء وفى السياسة ، ونركب السيارة والطيارة ، ونسمع الراديو ونبصر أفلام السينما ، هذا الذى ربحناه ولكنا خسرنا التقى والعفاف والاطمئنان ، لقد كان أجدادنا أبعد عن حضارة أوربا ، ولكنهم كانوا أرضى لله منا ، وأقرب إليه ، وكانوا أقوم أخلاقا ، وأطهر قلوباً ، وأصفى سرائر ، وأصدق معاملة وكانوا أسعد منا فى الحياة ...

لا يا سادة : إنى لم أعد أجد للأعياد بهجة ، فردوا إلىّ ماضى ، أرجعونى إلى عيد الصرماية ، والقبرة ، والمسحر ، فإنى لم ألق السعادة إلا فيه ، أنقذونى من هذا العلم وهذه الحضارة ، فأنا جامد ، أنا رجعى ، رجعى ، رجعى ! !

والعفوَ يا سادة : لقد نغصت عليكم بهذا الحديث القاتم المضطرب عيدكم لقد نسيت قواعد الآداب الاجتماعية فكدرتكم يوم الصفاء ، وكنت عندكم فاسد الذوق سيء الاختيار ، فلا تؤاخذونى ... واقبلوا على عيدكم وسروركم ، ودعونى أبكى يوم العيد ماضيات أيامى . وكل عام وأنتم بخير !

على الطنطاوي